ابن قيس الرقيات والأسماء
قراءة نقدية في ضوء الأنساق الثقافية

إعـــداد
د. محمد بن مشعل الطويرقي
أستاذ مشارك - كلية الآداب - جامعة الطائف

مجلة بحوث التربية النوعية – جامعة المنصورة
العدد السابع عشر – مايو ٢٠١٠

ابن قيس الرقيات والأسماء
قراءة نقدية في ضوء الأنساق الثقافية

د . محمد بن مشعل الطويرقي*

مقدمـــة

الحمد الله وحده والصلاة على من لا نبي بعده سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

يتسع شعر ابن قيس الرقيات لمقاربته بطرق مختلفة :أسلوبية ، تاريخية، نفسية، رمزيه ... الخ (١) لكننا في هذه الدراسة لن نفعل شيئا من ذلك، بل نسعى إلى تحقيق هدف آخر ، يتمثل في الكشف عن الأبعاد الثقافية التي تخفت وراء الأسماء التي انحدر منها شعر ابن قيس الرقيات ، قد نتوسل بطريقة أو أكثر من تلك الطرق لمساعدتنا في الكشف عن هذه الأبعاد، وبطبيعة الحال سوف نعول على الأخبار السردية التي ارتبطت بهذا الشعر ولن نفرق بينها وبين الشعر ، كلاهما جزء من نص الثقافة الذي دار حول الشاعر .

وقد جاءت الدراسة تبعاً لذلك في المباحث التالية:

- تمهيد عن سيميائية الأسماء.
- الرقيات ومحو العلامات.
- الاسم ومخاتلة النسق.
- الاسم وهاجس الانتماء.
- خاتمة.

اسأل الله التوفيق والسداد إنه سميع مجيب الدعاء.

* أستاذ مشارك - كلية الآداب - جامعة الطائف .

تمهيد : سيميائية الأسماء.

الاسم مفتاح المعرفة ، وهو الوسيلة التي يلج بها الإنسان إلى المجتمع ، ويصبح شيئا فشيئا الشاهد والتاريخ والحاكي والراوي، يروي ما لم تذكره الكتب ، وما نسيته الذاكرة ، وما حوته الواعية (٢).

عوّل الإنسان على الاسم لاستحضار الأشياء وتحديدها ؛فسمى الأودية والجبال، وسمى الكواكب والنجوم، وسمى خيله وإبله وكلابه ... الخ ، أما الإنسان نفسه فهناك عناصر عدة اجتمعت في تسميته ؛فهو يجد اسما ينتظره عند مولده، ويرث اسم نسبه من أسرته، كما يمنح بعد ذلك لقبا وكنية، وتتظاهر جميع هذه العناصر لرسم هوية الإنسان، وأي تغيير في أحدها يؤدي إلى اختلال في هذه الهوية، ويدل على أننا إزاء إشكالية انفصال وأن هناك هزة لا بد أن تملأ باليقين والثقة حتى يمنح الدال استقراره (٣).ولعل هذا هو الذي جعل " بني الزنية " وهم فرع من بني أسد يرفضون تغيير اسمهم عندما أراد النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ؛فقد أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يبدأوا تاريخا جديدا يكون الإسلام فيه نقطة البداية ، لكنهم فيما يبدو " لم يقتنعوا بالتخلي عن اسمهم الذي حملوه وألفوه وأقاموا معه تلك العلاقة الغامضة التي تقيمها الكائنات العاقلة مع أسمائها ..." (٤).

الحديث عن الأسماء باب واسع يستدعي متابعته على أكثر من مستوى، لكننا لن نتوغل في ذلك بأكثر مما تستدعيه هذه الدراسة.

يقول الجاحظ " كان عندنا حارس يكنى أبا خزيمة، فقلت يوما وقد خطر على بالي :كيف اكتنى هذا العلج الألكن بأبي خزيمة ؟ ثم رأيته فقلت له :خبرني عنك : أكان أبوك يسمى خزيمة ؟ قال لا، قلت فجدك أو عمك أو خالك ؟ : قال لا ، قلت : فلك ابن يسمى خزيمة؟ قال : لا ، قلت : فكان لك مولى يسمى خزيمة؟قال : لا ، قلت :فكان في قريتك رجل صالح أو فقيه يسمى خزيمة؟قال : لا ، قلت : فلم اكتنيت بأبي خزيمة وأنت علج ألكن ، وأنت فقير وأنت حارس؟قال: هكذا اشتهيت .قلت : فلأي شيء اشتهيت هذه الكنية من بين جميع الكنى ؟ قال : ما يدريني؟ قلت فتبيعها الساعة بدينار وتكتني بأي كنية شئت ؛ قال: لا والله ، ولا بالدنيا وما فيها ! " (٥).

هذا النص تناثرت فيه الأسئلة والأجوبة بين محقق وجان، محقق يسعى للمحافظة على حقوق الملكية والبحث عن المبررات التي سوغّت للحارس استعماره هذا الاسم، فيما لاذ الحارس بالمراوغة والنفي، وقد انتهت القضية بأن دفع الجاحظ من ماله لاسترداد هذا الاسم الذي اختطفه هذا الحارس، الذي أزعم أنه كان على وعي بمكانة الاسم لا يقل عن وعي الجاحظ نفسه؛ فهو على الرغم من زعمه بعدم معرفة السبب الذي جعله يكتنى بهذه الكنية إلا أنه رفض بيعها بالدنيا وما فيها، وكأني به أراد أن ينخرط هو وأبناؤه في الثقافة العربية من خلال هذا الاسم.

إن استراتيجية التسمية في الثقافة العربية استراتيجية واعية، وليست عشوائية ؛فهم على ما ذكر أبو رقيش الأعرابي يسمون أبناءهم لأعدائهم ، وعبيدهم لهم (٦)، كما أنهم يعقدون إلفا مع

أسمائهم فيسمون الحفيد باسم جده والحفيدة باسم جدتها(٧) ، وهذا يؤدي بدوره إلى أن تشيع أسماء معينة في كل أسرة وفي كل بيت من البيوتات؛ فالأمويون شاعت فيهم أسماء مثل : أمية ، أبو الحكم، أبو العاص، مروان، يزيد ... والعباسيون شاعت فيهم أسماء مثل : العباس ، جعفر، على، عبدالله ... وهكذا ، وهذا لا يمنع أن تتسلل بعض الأسماء بفعل الصداقة أو المصاهرة أو أمور أخرى تجلت في نص الجاحظ السابق.

أما استراتيجية الأسماء في الأعمال الأدبية فتتفاوت آراء الدارسين حولها : فهناك من يرى أن استراتيجية الأسماء في الأعمال الأدبية في أغلب الأحيان استراتيجية واعية، وأن المؤلف يختارها عن قصد ، وعن سابق إصرار وتصميم ، ويحملها المعاني والدلالات التي تندرج في السياق العام لمعنى الأثر(٨).

ومنهم من يرى أن الأسماء لا دلالة لها ، بل هي مجرد سمات بسيطة تسمح بالتمييز بين موضوع وآخر ... وإنها بمثابة أوصاف مقنعة (٩).

كما يفرق بعضهم بين نمطين من الأسماء، أسماء للإخبار ، وهذه قلما تتجاوز دلالة الاسم على المسمى ، وأسماء للإيحاء ، وهي التي يتخيرها الشاعر من رصيده الثقافي ، ودلالتها ليست في ذاتها ولكن فيما وراءها من أبعاد(١٠).

وعلى ضوء ذلك فإن أشعار ابن قيس الرقيات تنحدر من مجموعة من الأسماء المتخيلة والحقيقية وهي نمطان :

النمط الأول : أسماء النسوة التي هي أقرب إلى أن تكون أسماء متخيلة أو أسماء للجواري والمغنيات مثل : أمة الغفار ، تكتم، أم مساحق، أثلة، قسيمة، ليلى، أسماء ، ريا ، سلامة ، مسعده ، سعدى، سلمى، سليمى ، سلمة، نعمى، أم عمرو، أم الوليد ... ودلالاتها لا تتجاوز دلالة الاسم على المسمى في أكثر الأحيان، وهي لا تشير إلى أنثى محددة بل تشير إلى الأنوثة المطلقة، وهي امتداد للطريقة التقليدية في الغزل.

النمط الثاني : وهي الأسماء الصريحة لكبار رجالات قريش في الجاهلية والإسلام، وشريفات هذه القبيلة اللاتي صرح بأسمائهن، هذا بالإضافة إلى أسماء الأماكن وخاصة أماكن الحجاز ، وهذه الأسماء اختارها الشاعر ليعبر بها، ودلالاتها ليست في ذاتها بل تتعداها لما وراءها من أبعاد.

الرقيات ومحو العلامات :

تذكرت وأنا أتأمل نسب ابن قيس ، وما آل إليه أمره، وكيف تسللت الرقيات إلى نسبه؟ تذكرت حكاية أهل جزيرة في المحيط الهادي، كان لهم أساطيرهم التي تزودهم بالأجوبة على كل تساؤلاتهم في الوجود والمصير، وكان لهم حكماء يروونها لهم، ثم حدث أن أحد الحكماء نسي اسما في

سلسلة الأسماء، فرحل بحثا عن وسيلة للتذكر، وعندما عاد وجد قومه قد غلب عليهم أعداؤهم ، فغيروا أسماءهم وثقافتهم وتلبسوا نساءهم (١١).

ونحن لا نريد أن نتلقى حكاية ابن قيس بمثل أسطرة حكاية هؤلاء القوم، لكن لا يحسن بنا ونحن نرى هذا الشاعر الذي ملأ صيته الآفاق يتنقل في بطون الكتب مرة باسم "عبيدالله "(١٢)وأخرى باسم "عبدالله "(١٣) ولا نعرف حقيقة ذلك وكيف حصل؟.

إن اضطراب الرواة في تحديد اسم ابن قيس جعله يقع في دائرة العتمة والغموض، وسلكه في سياق الخيالي الذي لم يتعين ، ولا يمتلك علامات تفرقه عن غيره، وقد يرى فيه البعض تهوينا لشأنه وتنقيصا من مكانته(١٤).

أما سلك نسبه في الرقيات فقد حرمه من الانتماء إلى مجموعة يُدرج نفسه في ماضيها، ويتبنى تاريخها وهويتها، ويقوّم ذاته من خلال الانتماء إليها حيث إن حقيقة الإنسان ليست في نفسه بل فيما وراءها من الشعور الفطري بالأصالة وقوامها من الأصلاب والأرحام التي تعطي الإنسان قوة العزيمة(١٥).

لقد فقد ابن قيس علامتين مهمتين في حياة كل إنسان، فهل يعني هذا أن الخطاب الذي أدارته الثقافة حوله وعنه ينطوي على عداء صريح له ؟.

ليس أمامنا إلا قراءة هذا الخطاب نفسه، وهو ذو شقين :نصوص سردية تدور حول الشاعر، نسجها رواة متعددون يختلفون في مشاربهم وانتماءاتهم ، أما الشق الآخر فهو نص الشاعر نفسه، وهو لا يختلف عن أي نص شعري آخر في علاقته بقائله، ومع أنه وصل إلينا براوية أبي سعيد السكري، إلا إنه لم يسلم – كما يقول محقق ديوانه – من تدخلات خصومه بالتحريف والتصحيف لإضفاء الصبغة التي يريدونها على هذا الشعر(١٦).

يظهر لنا بداية أن الخطاب السردي الذي دار حول الشاعر ملئ بالثقوب والفجوات، وهو خطاب منقسم على ذاته، وذلك لسيادة خطابين أحدهما مع الشاعر والآخر ضده.

يلهينا هذا الخطاب – بداية - بالحديث عن السبب الذي لقب ابن قيس بالرقيات، فتارة يذهب الى انه لقب بذلك لأنه كان يشبب بثلاث نسوة، كل واحدة منهن تسمى " رقية "، وهذا يعني أن الشاعر نفسه هو المسؤول عن هذا اللقب فهو الذي سعى إليه، ومن جهة أخرى فهو يشير الى انه انتماء فني لا غير. لكنه ما إن يطمئن الى إلصاق هذا اللقب بالشاعر حتى ينصب شباكه مرة أخرى ، ويشرع في المراوغة والإيهام فيتحدث عن أسباب أخرى ؛فيذهب إلى أن هؤلاء الرقيات لسن محبوبات الشاعر، وإنما هن جداته ، وهناك فرق بين الأمرين؛ فالأول – كما اشرنا - انتماء فني - أما الآخر فهو انتماء نسب، وكأن ابن قيس لا آباء له، وإمعانا من هذا الخطاب في تأكيد ما يذهب إليه، يزعم بأن اللقب لأبيه وأنه ورثه عنه (١٧). لكن اللافت في هذا الخطاب انه لا يتحدث عن النتيجة التي ترتبت على هذا اللقب، والأضرار التي لحقت بابن قيس من جرائه.

هذا الخطاب قابله خطاب آخر حاول إنصاف الشاعر ، وهو خطاب مباشر يذهب إلى أن ابن قيس كان شاعر قريش في الإسلام (١٨) .فيعزز انتماءه إلى قريش من جهة ويوسع مدار شاعريته من جهة أخرى ولا يحصرها في فن الغزل وحده.

المتحدثون عن الشاعر كثر، وهم رواة شعره ورواة سيرته ، ومن حققوا ديوانه ودرسوا شعره ومن سردوا عنه في كتب التراجم ، وهم يختلفون في انتماءاتهم، وفي الأزمنة التي تحدثوا فيها ، لكنهم يتفقون على الانقسام في حديثهم عنه، وهو انقسام استمر إلى عصرنا الحاضر، فالدكتور طه حسين يرى أنه كان قرشيا قبل كل شيء (١٩)، لكنه لا يلبث أن يذهب إلى أن حياته متنوعة وأن حظه من الفن الشعري متنوع، وأنه كان في حياته العامة صاحب لهو وجد وفي حياته الشاعرة صاحب غزل ومدح ووصف وفخر ونضال سياسي (٢٠)، أما الدكتور علي نجدي ناصف فقد عنون دراسته عنه بأنه شاعر السياسة والغزل ، ومثله فعل الدكتور إبراهيم عبدالرحمن، ويرى الدكتور العبادي أن وفاءه لقريش يضطرم في شعره اضطراماً يكاد يردده مع أنفاسه قبل قصائده (٢١).

أحسب أن الدارسين المعاصرين يرغبون في تحديد هوية ابن قيس الفنية، وكأني بهم استشعروا أن لقب الرقيات يختصر شاعريته ويسلكه في الشعراء الغزلين مع إن شاعريته أوسع من ذلك، فالدكتور طه حسين ذهب في بادئ الأمر إلى أنه كان قرشيا قبل كل شيء ، لكن ظهر له – فيما يبدوا – أن هذا الرأي – أيضا – يختصر شاعريته ويحصرها في باب واحد مما جعله يذهب الى انه صاحب غزل ومدح ووصف وفخر ونضال سياسي، قد تابعه في ذلك كل من الدكتور على نجدي ناصف والدكتور إبراهيم عبدالرحمن ، أما الدكتور العبادي فقد ارتأى أن شعره في قريش هو العلامة المميزة والأبرز.

ومع كثرة الآراء وتعدد الأصوات والمحاولات إلا أنها - للأسف - لم تفلح في المحافظة على اسم ابن قيس ونسبه فأصبحت الرقيات جاثمة على كيانه ينوء بحملها كاهله.

هناك نص آخر ، وهو شعر الشاعر، وهو نص يمكن الاعتماد عليه لقربه من صاحبه؛وقد يكون الشاعر نفسه قد قصد إلى الدفاع عن نفسه من خلال شعره لفك الحصار الذي أحيط به.

ينفق ابن قيس جزءا ضخما من نصه الشعري في الحديث عن قبيلة قريش، بداهة فإن كيان قبيلة قريش وسيادتها أكبر من أن يحافظ عليه شاعر حتى لو كان بوزن ابن قيس، وهذا يجعلني أعتقد أن ابن قيس نفسه كان يحاول من خلال الحديث عن قبيلة قريش أن يلملم جراحه، ويجمع ما تناثر من نسبه، وهو الذي يعلم أن الانتماء للقبيلة كنز ثمين:

إن قوم الفتى هم الكنز في دنياه والحال تسرع التقليبا (٢٢)

ويفتخر بانتمائه إلى هذه القبيلة :

وقد علمت قريـــــــــش إننا فرع إذا انتسبـــــوا

مراجح في صفوفهـــــــم وفرسان إذا ركبـــــوا [٢٩٠]

ويتحدث عن أبناء عمومته بني النويعم ، أمثال : أبي عاصم، وأبي مالك، وأبي فاطمة، وأسامة والحسين، وهو حديث متصل لا ينقطع وأحسب أنه بمثابة ردة فعل لإنقاذ ما يمكن إنقاذه لسد الشرخ الذي أصابه من سلك انتمائه في الرقيات .

كما يكشف نصه الشعري أن أشعاره في "رقية" لا تتجاوز سبع مقطوعات، وهو في حديثه عنها لا يتجاوز الدلالة المطلقة للأنثى ، يقول في إحدى هذه المقطوعات:

شطت رقية عن بلادك ... فالهوى متشاعب

وغدت نوى عنها شطون ... في البلاد وجانب

واستبدلت بي خلتي ... إن النساء خوالب

ولقد تبدلنا بها ... حيا فأنعم راغب [٢١٦]

وجميع المقطوعات تسير على نفس النسق ، وهذا يجعلنا أمام مفارقة صريحة؛ فأشعاره في رقية لا تسمح بسلك انتمائه فيها خاصة أنه لم يقتصر عليها بل جاوزها إلى نسوة كثر، بينما شعره في قريش يصح أن يسلك انتماءه فيهم حتى لو لم يكن منهم.

لقد أضير ابن قيس كثيرا بسبب هذا اللقب ، ليس على المستوى الفني فقط، بل في حياته الخاصة، ولم يقف الأمر عنده فحسب، بل تجاوزه إلى عقبه؛حيث يتردد الخطاب الثقافي في حسم هذا الأمر ؛ فمرة يذهب إلى أنه لا عقب له، ومرة يذهب إلى أن له عددا من الأبناء والبنات[٢٣]، ولنا أن نتساءل بعد هذا كله هل حدث هذا الأمر عفوا أم أن هناك يدا خفية سعت إلى تدمير هذه الشخصية ومحق هويتها؟.

أحسب أن الرجل كان على عداء مع السلطة، وقد أدخل فكرة الصراع معهم إلى شعره، فهجاهم وهجا مناصريهم، ولا شك أنهم قابلوه بالعداء نفسه، فحاولوا قتله، لكنهم لم يتمكنوا لأمر لا نعلمه؛يروي أبو الفرج الأصفهاني أن عبدالملك بن مروان لما أعطي الأمان لابن قيس الرقيات، وحضر إلى مجلسه أخّر الإذن له، فلما دخل عليه، قال:يا أهل الشام:أتعرفون هذا؟ قالوا لا، فقال :هذا ابن قيس الرقيات الذي يقول:

كيف نومي على الفراش ولما ... تشمل الشام غارة شعواء

تذهل الشيخ عن بنيه وتبدي ... عن خدام العقيلة العذراء

فقالوا يا أمير المؤمنين :اسقنا دم هذا المنافق، قال:الآن، وقد أمنته وصار في منزلي وعلى بساطي، قد أخّرت الإذن له لتقتلوه فلم تفعلوا [٢٤].فهم وإن لم يستطيعوا شرب دمه فإنهم لم يعدموا طرقا أخرى لتدميره، وإنني أرجح أنهم هم الذين فعلوا به ذلك، فقد أرادوا له أن يكون مثل كثير عزه ؛ينسب في اليمن خزاعيا، وينسب في مصر كنانيا، وكان اليمانون والمصريون ينفونه ويزدرونه ويسخرون منه[٢٥]، أو أرادوا له أن يكون كالمجنون لا أحد يعرف انتماءه.

الاسم و مخاتلة النسق

أدارت الثقافة خطاباً حول المرأة ظهرت من خلاله كائنا مضافاً، فهي زوج لفلان، وأم لفلان، وبنت لفلان، وأخت له ... وقد أدى ذلك إلى حرمان المرأة من المشاركة في الحياة الاجتماعية والثقافية اللتين بقيتا حكرا على الرجل (٢٦).

وقد توسل هذا الخطاب بالجمالية لتمرير هذا النسق عبر مجموعة من الكنايات التي خاتل بها المرأة حتى لا تقاومه، فصورها " نؤوم الضحى"، "تتثاقل عن زيارة جاراتها" "إن مشت ليست بذات تلفت"، كأن لها في الأرض نسيا تقصه" ...الخ فحرمها من نعمة التمتع بالإشراق، وزين لها الكسل وقطيعة جاراتها، وأورثها قصر النظر.

لقد تحولت المرأة بفعل هذا الخطاب إلى كائن ثقافي، جرى استلابها، وبخست حقوقها، لتكون ذات دلالة محددة ونمطية، ليست جوهرا، وليست ذاتاً، و إنما هي مجموعة صفات (٢٧).

ما أثار انتباهي أثناء قراءتي لأخبار ابن قيس الرقيات وأشعاره أن علاقته مع المرأة تجري خلاف السائد والمألوف ، لنتأمل هذين النموذجين.

النموذج الأول: كثيرة.

روى أبو الفرج الأصفهاني قصة كثيرة من طريقين، أحدهما برواية محمد بن العباس اليزيدي و الحرمي عن أبي العلاء وغيرهما، وقد ذكروا أن ابن قيس بعد هزيمة ابن الزبير وقتله مضى إلى الكوفة، فدخل إلى أول بيت، فوجد فيه امرأة لها ابنتان كأنهما ظبيتان فأقام عندها أكثر من حول لا تسأله من هو ولا يسألها من هي، وعندما رغب في الشخوص إلى أهله جهزت له راحلتين ومعهما عبد، وأعطت العبد نفقة الطريق، وقالت العبد: والراحلتان لك. أما الرواية الأخرى فهي عن طريق الأصمعي، وهي لا تختلف كثيراً عن الرواية الأولى، لكنها تذكر أن اسم هذه المرأة "كثيرة"، سمعهم ابن قيس ينادونها به، وقد حاول معرفة هويتها ليكافئها فقالت له ما فعلت هذا من أجل المكافأة (٢٨).

والروايتان يكمل بعضهما بعضا، وتفكيكهما يكشف عن دلالات تختلف عن المألوف الثقافي والسائد العرفي، أوجزها فيما يلي:

- أصبحت المرأة ذاتاً مستقلة غير مضافة لأحد، وهي التي تقوم بالفعل طيلة زمن الحكاية الذي استمر أكثر من عام.
- سعى الخطاب إلى تأنيث الحيز المكاني الذي دارت فيه القصة، فليس فيه سوى "كثيرة" وابنتان لها.
- لا يذكر الخطاب شيئا عن زوج هذه المرأة طيلة عام كامل، ولا يشير إلى أقاربها الذين يحسن بهم أن يزوروها على الأقل في أوقات متباعدة خلال هذا العام.

- تزداد المفارقة حدة بجعل مكان الحكاية في أطراف المدينة.

- لا تسمح الحكاية بأية إطلالة للرجل؛ فالعبد - مع أنه ناقص الرجولة بعبوديته - أبعده الخطاب نهائياً عن الحدث، بعد أن وهبته "كثيرة" لابن قيس، وكأني بالخطاب قد تخوف من وجوده وتأثيره على بنية الحكاية.

- أظهرت الحكاية المرأة في موقف الشجاع؛ فهي تطمئن الجاني وتستل منه الخوف عندما تخبره سماعها نداء الخليفة في طلبه منذ نزل عليها، كما أظهرت أريحيتها؛ فهي لم تفعل ذلك من أجل المكافأة.

إن الأنوثة في هذه الحكاية تعري الرجولة، وهي بهذا تخالف السائد الثقافي والاجتماعي؛ حيث تتعرض المرأة للخطر لحماية الرجل والحفاظ على حياته.

ثمة نص آخر رافق هذه الحكاية التي قرأناها، وهو شعر الشاعر الذي تخفى عند "كثيرة"، وتتجاذبه نزعتان:

النزعة الأولى يخفت فيها النسق، ويصبح نص الشاعر ضد الثقافة، ويمنح المرأة كيانا خاصا وذاتاً مستقلة:

ظعنت لتحزننا كثـــــيرة ولقد تكون لنا أمـــــــيرة

وهي تتعالى على الرجال ولا تصبوا إليهم:

عاد له من كثيرة الطرب فعينه بالدموع تنسكـــب

كوفية نازح محلتهـــا لا أمم دارها ولا سقـــب

والله ما إن صبت إلي ولا يعلم بيني وبينها سبـــب

أما النزعة الأخرى فيطغى عليها النسق، فهو يتمنى لو أنه لم يلق "كثيرة"، ويضيفها إلى بني الخزرج:

كثيرة أخت بني الخزرج

وهي كبقية النسوة تخاف ممن حولها:

تخاف كثيرة من حولها وتقتل بالنظر الأدعـــج

ويفخر بنفسه عند الحديث عنها:

إني امـــــــرؤ لا يـزدرى دفعي عن اعراض العشيرة

في بيتها حسبا ومـــــن أخلاق صالحها ســـريرة

وقد يكون حديثه عن الكبر والشيب على لسانها بمثابة الاعتذار عن احتمائه خلفها:

قالت كثيرة لي: قد كبرت	وما بك اليوم من داهمه
رأت رجلاً شاحباً لونـــــه	أخا سفر أنزع القادمـــه
تخونه الدهر إخوانـــــه	كثيرة قد كنتِ بي عالمه

لنتذكر أن هذه النصوص قيلت في أوقات مختلفه، كان الرجل في بعضها مهدداً بالموت فتخفى وراء المرأة التي عرّضت نفسها للخطر لحمايته، في هذه اللحظة كانت المرأة محل تقدير جعل الرجل ينصفها غير عابئ بالنسق، لكن ما إن زال الخوف عنه حتى عاد الوضع إلى ما كان عليه، وربما كان ابن قيس نفسه يتألم في داخله مما جرى له، وهو الرجل الذي يحارب السلطان لينتزع ملكه؛ مما جعله يقع تحت تأثير النسق بالرغم من المعروف الكبير الذي قدمته له المرأة، لقد أنصف الرجل المرأة في ظل ضعفه وخوفه، وما إن واتته الفرصة وذهب عنه الخوف حتى عاد إلى ما كان عليه.

لكن هل سلمت الحكاية من تدخلات الرجل ومن حماة الثقافة، خاصة وأننا رأينا بطلها الرئيس يتراجع عنها ويحاول الالتفاف عليها؟، الرجل شجاع كما تفهم الثقافة، وهو الذي يحمي، لكن في حالتنا ستكون المرأة هي الشجاع وهي التي تحمي، وهذا يسلب الرجل حقوقه، ولابد من ضرب هذه الحكاية واقتحامها بالتغيير والتبديل؛ فالدكتور شوقي ضيف يرى أن "كثيرة" هي المفتاح الذي يمكن أن نعرف عن طريقة كل هذه الحكاية، فيأخذ في تقليب صفحات التاريخ ليجد نصاً يشير إلى أن كثيرة زوجة لعلي بن عبدالله بن العباس ويذهب إلى أن ابن قيس لجأ إلى علي ابن عبدالله لا إلى كثيرة نفسها كما ظن الرواة (٢٩)، ويصر على أن لها زوجا وأنه هو الذي قام بهذا العمل التطوعي لكنه لم يوضح لنا أين كان هذا الزوج طيلة عام كامل؟ لننتظر حتى تكتمل الحكاية فقد يكون زوج "كثيرة" ذهب إلى الخليفة ليحصل على أمان لابن قيس الرقيات!!.

النموذج الثاني: الأسماء الحقيقية.

أحدثت الأسماء الحقيقية التي تغزل بها ابن قيس الرقيات مثل: سكينة بنت الحسين، عائشة بنت طلحة، وأم البنين بنت عبدالعزيز بن مروان، وعاتكة بنت يزيد بن معاوية أحدثت إرباكا كبيراً لدى الباحثين الذين درسوا شعره، مما جعلهم يسلكون مسالك شتى لتأويله حتى ينسجم مع النسق الثقافي والاجتماعي السائد. فذهبوا إلى أن غزله في أم البنين وعاتكة كان هجاء يقصد به إغاظة الأمويين والتعريض بهم، و أن ثورة عبدالملك عليه وإهدار دمه إنما كان أثرا من آثار هذا الغزل، كما ذهبوا إلى أن غزله في سكينة وعائشة زوجتي مصعب كان مديحا يريد به الدعاية لمصعب وأهل بيته.

لقد اضطر هؤلاء الباحثون إلى تسمية الأشياء بغير أسمائها مما أوقعهم في التناقض؛ يقول الدكتور طه حسين :" تظهر في غزله الهجائي خصلة جميلة، رقيقة مؤثرة، لا نجدها عند غيره من الهجائين السياسيين، وهي أنه كان يخاصم الرجال دون النساء، وكان يتخذ النساء وسيلة إلى حرب

الرجال، فكان يحرص الحرص كله على ألا يؤذيهن أو يذيع بينهن الفاحشة كذباً وزوراً.."[٣٠] ويقول الدكتور العبادي عن الموضوع نفسه أنه " كان غزلاً فاضحاً يصف الخلوة والعشق له، وأنه قد تيمهن، وهن في عصمة عبدالملك، ثم يظهر لعبدالملك أن عاتكة وأم البنين راغبتان عنه لغيره من الرجال، وذلك مسلك غريب لا يتفق مع آداب الإسلام الفاضلة ، كما لا يتفق مع المروءة وصفات المسلمين " [٣١].

لنتأكد أننا أمام ظاهرة جديدة برزت في العصر الأموي ، فقد أصبحت المرأة تحضر في الشعر باسمها الحقيقي، في حين كانت تحضر سابقا بالاسم لمجرد الدلالة على الأنوثة المطلقة، ولا تشير إلى أنثى معينة، ونحن لا نستطيع عزل هذه الظاهرة عما استجد من ظروف في ذلك العصر أسهمت في كسر السائد الثقافي والمألوف العرفي ، مما جعل المرأة تصيب ضربا من الحرية، فأخذت تشارك في الاستمتاع بالحياة الجديدة ، وتلم بالفنون الحديثة من شعر وغناء ، فكانت تحضر مجالس المغنين والمغنيات، وتشارك في تنظيمها ، وتتعرض للشعراء وتطلب إليهم أن ينسبوا بها وليرفعوا من قدرها ويخلدوا جمالها[٣٢]، ذكر ابن قتيبه أن عائشة بنت طلحة بعثت إلى كثير فقالت له:يا ابن أبي جمعة، ما الذي يدعوك إلى ما تقول من الشعر في "عزة"، وليست على ما تصف من الحسن والجمال؟ لو شئت صرفت ذلك إلى غيرها ممن هم أولى به منها أنا أو أمثالي فأنا أشرف وأوصل من عزة[٣٣] ، وذكر المبرد أيضا أن نصيبا نزل بامرأة تكنى أم حبيب من أهل ملل وكانت تضيف في ذلك الموضع وتقرى، وكان نصيب لا مال معه في ذلك الوقت، فقال لها :إن شئت فلك أن أوجه إليك بمثل ما أعطاك أحدهما، وإن شئت قلت فيك شعرا ، قالت: بل الشعر [٣٤] . فهذه النصوص وأمثالها تكشف لنا أن الخطاب الثقافي في العصر الأموي قد غلب عليه التسامح مع المرأة ، وخفت منه النسق، واتسعت مدارك سامعيه لقبوله على هذا النحو الذي أحسب أنه لا يتعارض مع قيم الإسلام ؛ فهؤلاء السامعون هم كبار الصحابة والتابعين، الذين لم يكن يفصل بينهم وبين عصر النبوة إلا سنوات محدودة.

هذه اللحظة اقتنصها الشعراء ، ومنهم ابن قيس الرقيات الذي أدار خطابه الشعري على عدد من الأسماء الواقعية لنسوة من فضليات العصر وشريفاته، فيمدح عبدالعزيز بأمه أيضا فيقول:

اثن على الطيب أبي ليلى إذا أثنيت في دينه وفي حسبه[١٩٢]

وهو أمر أحفظ أخوه عبدالملك ، لكنه ما لبث أن رضي بعد أن مدحه بأمه ، فقال:

ولدتك عائشـــــــة التـي فضلت أروم نسائهـــــا

ويقول في عبدالله بن جعفر :

وابن أسماء خير من مسح الركن فعالا وخيرهم بنيانا [٣٠٠]

لقد صاغ ابن قيس في شعره نمطا أنثويا متفردا يترامى إلى آفاق لا متناهية من الرمزية، فعائشة بنت طلحة زوج مصعب بن الزبير " جنية "، "مطلية الأقراب بالمسك"، "لها خرج العراق ومنبر الملك " وأحسب أن عائشة في هذا السياق هي المُلك نفسه، أما أم البنين زوج الوليد بن عبدالملك فقد

تنوعت إبدالاتها وانزياحاتها، واتسعت الدائرة الإشارية لها، وتقلبت أدوارها تقلب الملك الذي كاد يفلت من أهلها ثم أطبقوا عليه؛ فيتجاهلها ابن قيس في بداية الأمر، ويغيّب هويتها:

فكان الطيف من جنيـة　　　لم يدر مذهبهـــــا(٢٧٦)

ويشرب من ريقها، ويضاجعها، ويضحكها ، ويبكيها، ويلبسها ويسلبها، ويرضيها ويغضبها، هي تعجبه وهو يعجبها، كان ذلك عندما كان ابن الزبير في أوج قوته والأمر له، لكن بعد هزيمته، أعاد لأم البنين هويتها:

قرشية كالشمس اشـــرق　　　نورها ببهائهـــــــا

زادت على البيض الحسـان　　　بحسنها ونقائهـــــا

لما اسبكـرت للشبــــاب　　　وقنعت بردائهـــــــا

لم تلتفت للداتهـــــــا　　　ومضـــت على غلوائها(٢٧٧)

وهو رهن إشارتها، ينقاد لها حسبما تريد:

يا حبذا أم البنين علـــى　　　ما كان من بذل ومن تـــرك

إن تسلمي نسلم وأن تدعي　　　الإسلام لا نخذلك في الشرك(٢٨٩)

إننا أمام خطاب شعري له باطن وظاهر ، وهو يحتاج إلى ترجمان كما قال ابن أبي عتيق (٣٥) وقد أدرك معاصروه ذلك ، قال عبدالرحمن الزهري ، أنشدت أبا السائب المخزومي قول ابن قيس الرقيات:

قد أتانا من آل سعدى رسول　　　حبذا ما تقول لي وأقـــول

من فتاة كأن قرن شمـــس　　　ضاق عنها دمالج وحجول

حبذا ليلتي بمزة كلـــب　　　غال عني فيها الكوانين غول(٢٩١)

فقال لي : يا ابن الأمير ، ما تراه كان يقول وتقول؟ فقلت:

حديثا كما يسري الندى لو سمعته　　　شفاك من أدواء كثير وأسقما

فطرب وقال:بأبي أنت وأمي، ما زلت أحبك، ولقد أضعف من حبي إياك حين تفهم عني هذا الفهم(٣٦).

إن هذا النمط الأنثوي يتسع ليعبّر به ولا يعبر عنه، وهو نمط يقتصر على بنات وزوجات الملوك ، فيستحيلون معه إلى رموز للملك والخلافة.

إن المسألة أعمق ، والصراع بين ابن قيس والأمويين صراع فكري ضخم يرتبط بالفناء والبقاء، ولا أعتقد أن هجومه عليهم عن طريق نسائهم يؤثر في هذا الصراع أي تأثير، كما إن هذا الأسلوب مرفوض في الثقافة العربية، ترى فيه دناءة ينأى العربي بنفسه عنها، وابن قيس لم يكن شريرا ولا سيء الدخيلة ، وهو كما يقول الدكتور طه حسين؛ محب لقومه يؤثرهم على الناس جميعا، ويحرص على كرامتهم أشد الحرص (٣٧)، وهؤلاء النسوة بنات عمومته تربط بينه وبينهن أواصر القرابة والرحم:

بالله يا أم البنين: ألـــم	**تخشي عليك عواقب الاثم**
لله درك في ابن عمك إذ	**زودته سقما على سقـــــم** [٢٩٥]

إن هذا النمط من الغزل كان له معارضوه الذين وقعوا تحت تأثير النسق؛ذكر ابن عبدربه أن يزيدا قال لأبيه : إن عبدالرحمن بن حسان يشبب بابنتك رملة قال: وما يقول فيها؟ قال :يقول :

هي بيضاء مثل لؤلؤة الغـــواص	**صيغت من لؤلؤ مكنـــــون**
قال: صدق ، قال : ويقول :	
وإذا ما نسبتها لم تجدهـــــا	**في سناء من المكـــارم دون**
قال : صدق أيضا، قال : ويقول :	
تجعل المسك واليلنجـــــوج	**صلاء لها على الكانـــــون**
قال : صدق ، قال : فإنه يقول :	
ثم خاصرتها إلى القبة الخضراء	**تمشي في مرمر مسنـــــون**
قال : كذب ، قال : ويقول :	
قبة من مراجل ضربوهـــــا	**عند برد الشتاء في قيطون**
قال : ما في هذا شئ(٣٨) .	

كما تهدد الحجاجُ الشاعر النميري عندما تغزل بأخته زينب، لكنه عاذ بوالد الحجاج الذي ذهب إلى الخليفة عبدالملك فقال له : يا أمير المؤمنين إن فتى منا ذكر زينب بما يذكر العربي ابنة عمه، وقد علمت أن هذا – يعني الحجاج – لم يزل يتتوق عليه ويهم به، قال عبدالملك : أليس النميري، قال : بلى، قال : لقد سمعت شعره فما سمعت مكروها ثم أقبل على الحجاج فقال : لا تعرض له (٣٩) وأحسب أن الدكتور طه حسين ومن نحا نحوه من الدارسين قد وقعوا تحت طائلة هذا النسق الثقافي حينما جعلوا هذا الشعر هجاء وأن الأمويين أهدروا دم ابن القيس لتغزله في نسائهم، وأحسب أنهم كانوا صارمين فيما ذهبوا إليه مثل يزيد والحجاج.

الاسم وهاجس الانتماء

أوشكت سياسة الأمويين أن تقضي على قبيلة قريش، فقد قاموا بتحييد رجالاتها، ومكنّوا لغيرها من القبائل المنافسة التي ظلت تحسدها وتتطلع إلى سلطانها في الجاهلية والإسلام، لقد اصطنع الأمويون كلبا ومن لفّ لفّها من القبائل اليمنية وانتصروا بهم على أبناء عمومتهم، وانتهى بهم الأمر إلى دخول مكة – حرسها الله - غير مبالين بحرمة البيت وهدموا الكعبة:

حرقته رجال لخم وعك وجذام وحمير وصداء [٢٥٥]

وقد عرضت هذه السياسة مركز قريش الديني والسياسي للخطر، وكاد السلطان ينتقل من قريش إلى كلب:

حبذا العيش حين قومي جميع لم تفرق أمورها الأهواء

قبل أن تطمع القبائل في ملك قريش وتشمت الأعداء

أيها المشتهي فناء قريش بيد الله عمرها والفناء

لقد اصطف القرشيون خلف ابن الزبير، وكان ابن قيس الرقيات ضمن هذا المعسكر وقد أدخل شعره في قلب هذا الصراع ، وكانت الأسماء : أسماء الأعلام وأسماء الأماكن إحدى الصيغ التي عوّل عليها لتعزيز الانتماء ، وتوحيد الصفوف لمواجهة الخصوم.

أسماء الأعلام :

تقمص ابن قيس شخصية الحكيم الذي أشرت إليه سابقا ، فأخذ يستدعي الأسماء التاريخية لكبار رجالات قريش في الجاهلية والإسلام ، وقد بدأها بالمصطفى صلوات الله وسلامه عليه وكبار الصحابة:

نحن منا النبي الأمي والصديق منا التقي والخلفاء

وقتيل الأحزاب حمزة منا أسد الله والسناء سناء

وعلي وجعفر ذو الجناحين هناك الوصي والشهداء

والزبير الذي أجاب رسول الله في الكرب والبلاء بلاء

وأبو الفضل وابنه الحبر عبدالله ان عي بالرئي الفقهاء

والذي إن أشار نحوك لطما تبع اللطم نائل وعطاء

وعياض منا عياض بن غنم كان من خير من اجن النساء [٢٥٦]

ولم يقف عند أسماء رجالات قريش فحسب ، بل تعداهم إلى من حالفهم من الأحابيش :

ورجال من الأحابيش كانت لهم في الدين حاط دمـــــاء[٢٥٤]

لنلاحظ أنه يستبعد الأسماء الأموية مع أنهم من سادة قريش، فهو يحملهم ما آل إليه الحال ويكرهم كرها شديدا:

أنا عنكم بني أمية مــزور وأنتم في نفسي الأعـــــداء [٢٥٦]

ويحاول أن ينتزع عثمان بن عفان - رضي الله عنه - منهم ؛ فيقوم باستدعائه ضمن رجالات قريش عن طريق التأكيد على قرشيته وما كان يكنه القرشيون له من حب:

والذي أشربت قريش له الحب عليه مما يحـــــــــب رداء [٢٥٤]

لكن سارت الأمور على غير ما يريد ابن قيس فانهزم ابن الزبير الذي عقد عليه الآمال لاستعادة المجد القرشي ، وغلب الأمويون وأصبحت أسماؤهم : (أمية ، معاوية، يزيد، أبو العاص، أبو الحكم، مروان ...) هي الأسماء الغالبة ، فماذا فعل ابن قيس الرقيات ؟.

لنتذكر أن ابن قيس ليس مجرد شاعر أو عضو في معسكر ابن الزبير، لقد كان الحكيم والمنظر الفكري والإعلامي لهذا المعسكر، وهذا ما جعل ابن الزبير - عندما أدرك أن الحسم العسكري ليس في صالحه - يحمل ابن قيس بالأموال ويطلب منه النجاة (٤٠) ولعله فعل هذا طمعا في أن يكمل ابن قيس المشوار وتحقيق الهدف ؛ من خلال النضال الفكري.

لقد تخفى ابن قيس عاما أو أكثر لامتصاص الغضب الأموي الذي كان يطارده ليلا ونهارا في كل مكان .لكن بعد أن خف الطلب عليه خرج من مخبئه ، فاستجار بعبيدالله بن جعفر أو بعبدالعزيز بن مروان، تختلف الروايات في ذلك ، فشفع له أحدهما بالكتابة إلى أم البنين زوج الوليد، لتشفع له عند عمها عبدالملك الذي كان لا يرد لها طلبا ، وقد قبل شفاعتها فيه بعد جهد جهيد(٤١).

بدأت في تلك اللحظة مرحلة جديدة في حياة ابن قيس تتسم بالمداهنة والمهادنة، فمدح عبدالملك بقصيدة يقول فيها :

ما نقموا من بني أمية إلا أنهم يحملون إن غضبـــــــوا

وإنهم معدن الملوك فــلا تصلح إلا عليهم العـــــــرب [١٨٥]

وتتسلل الأسماء الأموية على لسانه :

إن الفنيق الذي أبـــوه أبو العاصي عليه الوقار والحجب

خليفة الله فوق منـــبره جفت بذاك الأقلام والكـــتب

يعتدل التاج فوق مفرقــه على جبين كأنه الذهـــــب [١٨٥]

نقاد الشعر يرون أن ابن قيس لم يوفق في مدحه ، فقد جعل بني أمية ملوكا بل معدن الملوك ، والملك بدعة لا تتفق مع نظام الحكم الإسلامي، وأشار إلى إنهم جبابرة لا يصلح العرب إلا بشدة سطوتهم ، وقد جعل حصولهم على الخلافة قضاء وقدرا وليس لهم حق شرعي فيه (٤٢)، لنلاحظ إننا نتعامل مع نصوص مراوغة، قد تتبدى من خلالها صورة ابن قيس بطرق مختلفة، قد يراه البعض صادقا وقد يراه البعض مزدوج الولاء.هذه الضبابية هي ما أراده ابن قيس ؛ فقد كان مرغما على مدح الأمويين ومداهنتهم، ولم يكن عبدالملك بن مروان يجهل نوايا ابن قيس؛ يروى أنه قال :يا بن قيس تمدحني بالتاج كأنني من العجم وتقول في مصعب:

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء

ملكه ملك عزة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء

أما الأمان فقد سبق لك، ولكن والله لا تأخذ مع المسلمين عطاء أبدا(٤٣)، كما حاول عبدالملك التسلل إلى داخله ففاجأه بسؤال لا يحتمل المراوغة ؛يذكر أن ابن قيس "كان عند عبدالملك بن مروان فأقبل غلمان لهم معهم عساس خلنج فيها لبن البخت، فقال:عبدالملك : يا ابن قيس : أين هذا من عساس مصعب التي تقول فيها.

ملك يطعم الطعام ويسقي لبن البخت في عساس الخلنج

فقال :لا أين يا أمير المؤمنين ، لو طرحت عساسك هذه في عس من عساس مصعب لوسعها وتغلغلت في جوفه، فضحك عبدالملك ، ثم قال : قاتلك الله يا أبن قيس فانك تأبى إلا كرما ووفاء (٤٤)" وأحسب أن المسألة ليست عسا ولا لبنا بل تتعداها الى ما وراءها من بياض القلوب وسوادها، وقد كان سؤال عبدالملك سؤال المرتاب، ولم تكن ضحكته ضحكة إعجاب بل ضحكة من اكتشف الحقيقة الغائبة.

لم يكن ابن قيس في قرارة نفسه يحب الأمويين إلا واحدا منهم:

فجعت بالغر من أمية حاشـــي واحدا نجتلي به الظلما

أعني ابن ليلى عبدالعزيز ببا بليون تغدو جفانه رذمـــــا[٢٩٦]

وقد اختاره اختيارا:

اخترت عبدالعزيز مرتغبـــــا والله للمرء خير من قسما [٢٩٧]

لكن ما هي مبررات هذا الاختيار؟.

لنتذكر أن كره ابن قيس للأمويين ليس لأنهم أمويون، وهو لا ينكر عليهم أنهم من سادة قريش، لكن خلافه معهم يرجع الى أنهم ابتعدوا عن قريش ، فهو إن وجد أحدا منهم يعود بالأمر إلى قريش فهذا ما يتمناه ، وأحسب أنه وجد ضالته في عبدالعزيز بن مروان . يكشف لنا نسق الأسماء أن

عبدالعزيز بن مروان سمح للأسماء من خارج البيت الأموي بالتسلل الى بيته، فقد سمى أحد أبنائه عمرا، بعد أن تزوج إحدى حفيدات عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما أن ابنه الآخر أراد أن يتزوج سكينة بنت الحسين - رضي الله عنه - إلا أن الخليفة وقف ضد هذه الزيجة فلم تتم، لقد كان هذا البيت الأموي متواصلا مع البيوتات القرشية الأخرى، ينكح منها ويسمي بأسمائها ، وربما كانت محاولة عبدالملك خلع أخيه عبدالعزيز من ولاية العهد تصب في هذا الاتجاه، وقد استمر هذا الشعور تجاه هذا البيت الى نهاية الدولة الأموية، يقول مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، نجد في كتبنا أن ع بن ع بن ع يقتل م بن م بن م وأظن أن عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز قاتلي فأنا مروان بن محمد بن مروان (٤٥).

لا أريد أن أتوغل أكثر لأتوسل بالأسماء لقياس انتماء الإنسان، لكن المشهد الواقعي يؤكد أنه كانت هناك فجوة بين هذا البيت الأموي وبين الأمويين، تناثرت رموزها في كتبهم ، ، وقد سعى ابن قيس الرقيات الى توسيع هذه الفجوة ، فمدح عبدالعزيز بقوله:

يلتفت الناس حول منـــــــبره إذا عمود البرية انهدما [١٩٧]

ما يثير الانتباه في هذا البيت هو كلمة " انهدما " ، فالهدم من كلمات الموت؛ واستعمالها في حياة الإنسان دعاء بزواله ، يقول الشاعر:

وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

وهو أمر أحفظ الخليفة فقال : بفيه الحجر، كما استمر ابن قيس في توسيع هذه الفجوة فأفرد لها قصيدة ، يؤكد فيها أهلية عبدالعزيز للخلافة دينا وحسبا ؛ فيرفع نسبه في قريش إلى عبدمناف ، ويستحضر نسبه من جهة الأم الى قضاعة ليستميل القبائل اليمنية إلى جانبه في المعركة القادمة:

أمك بيضاء من قضاعة في البيت الذي يستظل في طنبـــــه

وأنت في الجوهر المهذب مـــــن عبد مناف يداك في سببـــه [١٩٢]

ويرسم صورة زاهية لهذا البيت ويستحسن استمرار الخلافة فيهم:

يخلفك البيض من بنيك كما يخلف عود النضار في شعبه

ليسوا من الخروع الضعيـــف ولا أشباه عيدانه ولا غربـــــه [١٩٣]

وينص على وصية مروان بن الحكم لابنه عبدالعزيز بولاية العهد بعد أخيه عبدالملك:

نحن على بيعة الرسول وما أعطى من عجمه ومن عربـــه [١٩٣]

ويجمع الصفوف هذه المرة باستحضار أسماء رجالات من حمير ومضر في تشكل جديد يختلف عن قناعاته السابقة وكأني به تعلم درسا من إخفاقاته السابقة :

فيهم كريب يقود حمير لايعدل ... أهل القضاء عن خطبـــــــه

وعارض كالجبال من مضـــــر ... الحمراء يشفي ذا العر من جربه

وابنا نزار إذا هما اجتمعـــــا ... لم يتركا هاربا على هـــــربه [١٩٣]

يذكر الرواة أن عبدالعزيز كتب إلى عبدالملك يقول : لي ابن ليس ابنك أحب إليك منه إلي، فإن استطعت أن لا يفرق بيننا الموت وأنت لي قاطع فافعل، فرق له عبدالملك وكف عنه ذلك[٤٦] ، وأحسب أن رسالة ابن قيس كانت سببا في عدوله، و قد تكشفت له الأمور التي ربما تؤدي إلى الانقسام في البيت الأموي فقال مقولته المشهورة " لقد دخل ابن قيس مدخلا ضيقا ".

لقد حالت إرادة الله دون تحقيق هدف ابن قيس الرقيات بوفاة عبدالعزيز وقد انقطعت أخبار ابن قيس بعد ذلك نهائيا فمع أنه شاعر مجيد في باب الرثاء إلا أننا لم نجد له أي قصيدة في رثاء عبدالعزيز بن مروان ، كما أدارت له الثقافة ظهرها فتجاهلت تحديد موعد وفاته، لكن أمله في بيت عبدالعزيز بن مروان لم يخب، وصحّت نبوءته - فيما بعد - عندما تولى عمر بن عبدالعزيز الخلافة فحلق بها بعيدا عن الفكر الأموي وقربها من سيرة الخلفاء الراشدين.

أسماء الأماكن والبلدان:

ما يثير الانتباه أن علاقة ابن قيس بالمكان تتغير من مكان الى آخر وهي علاقة مرهونة بما يكنه من مشاعر وأحاسيس تجاه المكان، ويمكن تقسيم هذه العلاقة الى ثلاثة أنواع :

النوع الأول : المكان المحايد، مثل حلوان، وقد كاد حديثه عنها يستحيل الى مجرد الوصف ، وكأنما هو أحد شعراء الطبيعة ، فيذكر تينها وعنبها ونخلها وطيورها:

سقيا لحلوان ذي الكروم وما ... صنف من تينه ومن عنبه

نخل مواقير بالفنـاء الـبرني ... غلب يهتز في شربـــــــه

أسود سكانه الحمام فمـــا ... تنفك غربانه على رطبـه [١٩١]

ويتبعه مكان شبه محايد ، لا طيب للإقامة فيه مثل تكريت، فلا أهل ولا سلطان:

أتقعد في تكريت لا في عشيرة ... شهود ولا السلطان منك قريب

وقد جعلت أنباؤنا ترتمي بها ... بقتل نزار والحروب حـــــروب

وأنت امرؤ للحزم عندك منزل ... وللدين والإسلام منك نصـيب

فدع منزلا أصبحت فيه فإنه ... به جيف أودت بهن حـــــروب[٢٣٥]

النوع الثاني : المكان المعادي، وهو الشام، ولن يستريح له بال حتى يغير عليها :

كيف نومي على الفراش ولما ... يشمل الشام غارة شعـــواء

تذهل الشيخ عن بنيه وتبدي   عن براها العقيلة العـــذراء [٢٥٦]

النوع الثالث : المكان الصديق، وهي أماكن الحجاز من مكة الى المدينة، فيتحدث عن أحد ويناديه ويناجيه، ويسائله عن سخطه ورضاه، ويبث فيه الحياة بعد الموت الذي تغشاه فيقول :

أساخط أنت أم رضيت بمـا   استبدلت بالحي بعدهم فقد

بدلت غير الرضى وشط بهم   عنك صروف المنون والأبـــد [٢٤٠]

لكن اللافت انه يستحضر هذه الأماكن في صراعه مع الأمويين الذين يرى أنهم هم الذين سلبوا هذا المكان مكانته ، حينما نقلوا عاصمة الخلافة منه الى الشام:

أقفرت بعد عبد شمس كداء   فكدي فالركن فالبطحـــــــاء

فمنى فالجمار من عبد شمس   مقفرات فبلدح فحـــــــــــراء

فالخيام التي بعسفـــــــــان   فالجحفة منهم فالقاع فالأبـــواء

موحشات إلى تعاهـــــــن   فالسقيا قفار من عبد شمس خلاء [٢٥٠]

وحديثه عن الحجاز وأحقيته بالخلافة حديث متسق لا ينقطع حتى في حضرة الخليفة الأموي عبدالملك ، يقول :

يا حبذا يثرب ولذتهـــــا   من قبل أن يهلكوا ويحــــــتربوا [١٨٤]

يروى أن معاوية عرض على عمر بن الخطاب رضي الله عنه نقل الخلافة الى الشام فرفض(٤٧). يبدوا لي أن ابن قيس عاش مثقلا بذكرى هذا الرفض، فقاومه بكل ما يستطيع، وقد نجح في تحقيق الهدف – على الأقل – على مستوى الذاكرة الشعرية.

الخاتمة :

سعيت في هذا البحث إلى التركيز على التدليل ؛ رغبة في إتاحة الفرصة للقارئ للمشاركة في تعميقه وإثرائه ، ودعم نتائجه التي أوجزها فيما يلي :

- ارتكز شعر ابن قيس الرقيات على مجموعة من الأسماء ، وهي على نمطين ، النمط الأول لا تتجاوز الأسماء فيه كونها معجما أسمائيا لجواري ومغنيات مكة والمدينة أمثال أمة الغفار ، تكتم ، أم مساحق ، أثلة ، قسيمة ، ليلى ، أسماء ، ريا ، سلامة ، مسعده ، سعدى ، سلمى ، سليمى ، سلمة، نعمى ، أم عمرو ، أم الوليد ... ، ودلالتها لا تتجاوز الاسم على المسمى، وكان يمكن لهذا النمط أن يجعل من ابن قيس الرقيات ثنائيا متميزا مع معاصر عمر ابن أبي ربيعة، لكن ابن قيس انحرف عن المسار الى وجهة أخرى، في حين أكمل عمر ابن أبي ربيعة المشوار وأفرد ديوانه بأكمله لهذا الباب . أما النمط الثاني فهي الأسماء الصريحة لكبار رجالات قريش وفضليات نسائها ،

وأسماء الأماكن في الحجاز ، وهذا المستوى رافق مراحل صراعه مع الأمويين ، وهي أسماء اختارها ليعبر بها؛ ودلالاتها تتعداها إلى ما وراءها من أبعاد .

- أضير ابن قيس كثيرا من لقب " الرقيات " أضير حياتيا بحجب نسبه القرشي ، وفي تحديد اسمه ، هل هو عبيد الله أو عبدالله ، واستمرت هذه المشكلة إلى عقبه ، أما من الناحية الفنية فقد اختصر هذا اللقب شاعريته في باب الغزل ، بل قصره على الرقيات.

- النصوص التي تغزل فيها برقية محدودة لا تتجاوز من حيث الكم سبع مقطوعات ، وهي تشير إلى الأنوثة المطلقة ولا تخص أنثى محددة، ويمكن أن نسلكها في النمط الأول ، الذي تغزل فيه بنسوة كثر غيرها.

- خصص ابن قيس الرقيات جزءا ضخما من شعره للدفاع عن قبيلة قريش ، وكأني به أراد أن يلملم ما انتثر من نسبه بسبب لقب الرقيات ، ويحاول تعزيز انتمائه إلى هذه القبيلة العريقة.

- قد يكون وراء تلقيبه بالرقيات يد خفيه ، فالمعطيات الفنية - كما أشرنا - لا تقود إلى هذا اللقب ومما يعزز هذا الزعم كونه كان على عداء صريح مع السلطة.

- أحدث غزله في نساء الأمويين إرباكا لدى الدارسين الذين رأوا أنه يهجوهم من خلال التغزل بنسائهم ، ورأوا أن هذا لا يليق وليس من أخلاق المسلمين ، وقد ظهر للباحث أن المسألة أعمق من ذلك؛ فقد صاغ ابن قيس الرقيات نمطا أنثويا متفردا ، استحال معه هؤلاء النسوة إلى رموز ، تتغير إبدالاتها وانزياحاتها من موقف إلى آخر، بل إن بعض الأسماء تتغير إبدالاتها من موقف إلى آخر، وهذا النمط يقتصر على بنات وزوجات الخلفاء والأمراء.

- اتخذ ابن قيس من الأسماء وسيلة لمقارعة الأمويين وتوحيد الصفوف لمواجهتهم ، وكان لحضور الاسم دلالاته ، حيث استبعد الأمويين من قائمة الأسماء واستحضر كافة الأسماء من البيوتات القرشية ومن حالفهم من الأحابيش .

المصادر

١- انظر :
- د.طه حسين، حديث الأربعاء، دار المعارف ط١٢، ١/٢٤٩- ٢٦٠.
- د.شوقي ضيف ، الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية، دار المعارف، ط ل (د.ت) ٢٧٥ – ٣١٦.
- د. علي النجدي ناصف، ابن قيس الرقيات، شاعر السياسة والغزل، مطبعة احمد مخيمر، القاهرة ١٩٦٨م.
- د.عبدالله عبدالكريم العبادي، رؤية جديدة في شعر ابن قيس الرقيات، مطبوعات نادي الطائف الأدبي، ١٩٩٠.
- د.ابراهيم عبدالرحمن، شعر ابن قيس الرقيات بين السياسة والغزل، تحقيق ودراسة الشركة المصرية العالمية للنشر ط١، ١٩٩٦.

٢- محمد العافية، سيميائية أسماء الأعلام في: الوقائع الغريبة:لأميل حبيبي ، مجلة الأقلام العراقية (ع١٩٩٠، ٦) ص ١١٨.

٣- د.فاطمة الوهيبي، جدل التسمية وجدل الكينونة، قراءة في قصيدة "دون اسم" موسوعة الأدب السعودي، ط١، ١٤٢٢، المجلد الثاني، ص ٨٨٤.

٤- حسن بدوي، أمثولة العبد الآبق، فصول، المجلد١٥، العدد٤، ١٩٩٧، ص ٢٨٥.

٥- الجاحظ، الحيوان، تحقيق وشرح عبدالسلام هارون، دار أحبار التراث العربي، بيروت ط٣، ١٣٨٨، ٢٨/٣.

٦- القلقشندي ، صبح الأعشى ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩١٣ ، ١ / ٣١٣.

٧- جاكلين سوبليه، حصن الأسماء، قراءات في الأسماء العربية، ترجمة سليم محمد بركات، المعهد الفرنسي للمنشورات العربية، دمشق ١٩٩٩ ص ١٨.

٨- إبراهيم صحراوي، أسماء الشخصيات في الرواية الجزائرية العربية المعاصرة بين الأدبية والايدولوجيا، مجلة اللغة والأدب، الجزائر، (ع٨، ١٩٩٦) ص ١٧٥.

٩- محمد العافية، مرجع سابق ص ١١٩.

١٠- محمد الهادي الطرابلسي، خصائص الأسلوب في الشوقيات ، منشورات الجامعة التونسية ، ١٩٨١، ص ٣٨٩.

١١- جاكلين سوبليه، مرجع سابق ص١١.

١٢- انظر:
- ابن سلام: طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المعارف، ١٩٥٢ ص٥٢٩.
- المصعب الزبيري، نسب قريش، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المعارف ١٩٥٣، ص٤٣٥
- ابن قتيبه، الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، طبع عيسى الحلبي ١٣٦٤هـ، ٥٢٣/١.

١٣- انظر:
- الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ١٥٤/٧.

- المبرد: الكامل في اللغة و الأدب، تحقيق محمد احمد الدالي، مؤسسة الرسالة ٨٢٦/٢، ٨٢٧ ، ١١٠٤/٣.
- ابن دريد، جمهرة اللغة، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد ، ١٣٤٥، ١٩٣/١.

١٤- انظر: أمثولة العبد الآبق، مرجع سابق ص ٢٨٦.

١٥- انظر : د.لطفي عبدالبديع، عبقرية العربية في رؤية الإنسان والحيوان والسماء والكواكب، مكتبة النهضة المصرية ط١، ١٩٧٦ ص ٧١.

١٦- د.ابراهيم عبدالرحمن، مرجع سابق ص ١٧٥.

١٧- انظر: البغدادي، خزانة الأدب، تحقيق عبدالسلام محمد هاورن، الهيئة العربية للكتاب ١٣٩٩، ٢٧٨/٧- ٢٨٤.

١٨- أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، دار الثقافة بيروت ١٩٨٣، ٦٦/٥.

١٩- د.طه حسين، حديث الأربعاء، مرجع سابق، ٢٥٥/١.

٢٠- المرجع السابق ٢٤٩.

٢١- د.عبدالله العبادي، مرجع سابق ص١١٠.

٢٢- د.إبراهيم عبدالرحمن، مصدر سابق ص٢٦٦، وسوف أكتفي بالإشارة إلى رقم الصفحة بجوار النصوص الشعرية لتوثيق شعر ابن قيس رغبة في عدم إثقال الهوامش.

٢٣- أبو الفرج الأصفهاني، مصدر سابق، ٨٤/٥.

٢٤- المصدر السابق ٦٩/٥.

٢٥- انظر: د.طه حسين، مرجع سابق ٢٨٥/١.

٢٦- د.عبدالله محمد الغذامي، المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، ط٢ ١٩٩٧ ص١٣١.

٢٧- المرجع السابق ص١٦.

٢٨- أبو الفرج الأصفهاني، مصدر سابق، ٦٧/٥.

٢٩- د.شوقي ضيف ، مرجع سابق ص٢٨٥.

٣٠- د.طه حسين، مرجع سابق ص ٢٥١.

٣١- د.عبدالله العبادي، مرجع سابق ص ٨٣.

٣٢- د.شوقي ضيف، مرجع سابق ٩٨، د.إبراهيم عبدالرحمن، مرجع سابق ٣٢.

٣٣- ابن قتيبة الدينوري ، الشعر والشعراء، مصدر سابق ص ٥٠٨.

٣٤- المبرد ، الكامل في اللغة والأدب ، ج ٢ ص ٦٨٩.

٣٥- أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني.

٣٦- المصدر السابق ٥ / ٩٠ .

٣٧- د.طه حسين، مرجع سابق، ص ٢٥١.

٣٨- ابن عبد ربه، العقد الفريد، دار الكتاب العربي ، ١٤٠٣ ، ٣٢٢/٥.

٣٩- المبرد، الكامل ، مصدر سابق ٦٩٨/٢.

٤٠- المصدر السابق ٦٧/٥.

٤١- المصدر السابق ٥ / ٦٩.

٤٢- د.محمد عبدالقادر أحمد، دراسات في أدب ونصوص العصر الأموي، مكتبة النهضة المصرية ١٤٠٢ ص٢١٢.

٤٣- أبو الفرج الأصفهاني مصدر سابق ٥ / ٧.

٤٤- المصدر السابق ١٩ / ٦٦.

٤٥- جاكلين سابليه، مرجع سابق ص ١٣٨.

٤٦- أبو الفرج الأصفهاني، مصدر سابق ١٧ / ١٩٦.

٤٧- ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر بيروت ١٣٩٧هـ، ٦٣/٣.